تصنيف الكتب

بين القديم والجديد

بقلم

د/ عبد الستار الحلوجى

الاستاذ بكلية الآداب وجامعة القاهرة

تعريف

التصنيف هو تنظيم الاشياء أو الافكار فيمجموعات يتوافر فى كل منها أكبر عدد من السمات أو الخصائص المشتركة • وفي كل مجال من مجالات الحياة تلقانا امثلة متعددة للتصنيف فالملابس في البيت تجمع معا في مكان غير المكان الذى توضع فيه الاطعمة ، والسلع في المتاجر ترتب في فئات متميزة يتفق كل منها فى عدد من الصفات والملامح ، وبدون هذا الترتيب يتعزر الوصول اليها والتعامل معها •

والمكتبة بدورها مضطرة الى أن تنظم مجموعاتها أو أن تصنفها بطريقة ما لتيسير استخدامها والاستفاده منها•واذا أخذنا مبدأ التشابه أساسا للتجميع وجدنا أن مقتنيات المكتبة يمكن أن تقسم الى مجموعات أو فئات طبقا لمعايير متعددة • فعلى اساس الشكل المادى تفصل الكتب عن الدوريات ، وتفصل المواد السمعية والبصرية عن هذه وتلك • وفئة الكتب وحدها يمكن أن تقسم الى مجموعات يتفق افراد كل منها في الحجم أو اللون أو اللغة أو المؤلفأو تاريخ النشر ولكن المعيار الموضوعى هو أفضل المعايير التى يمكن أن تجمع المؤلفات على اساسها لا لان المحتوى الفكرى هو اهم معالم الكتاب فحسب ، ولكن لان الكتب تطلب ـ عادة ـ لما فيها من مـادة علمية بغض النظر عن أحجامها أو الوانها أو حتى مؤلفيها •

ونظم التعليم في العالم كله تدعم هذه الحقيقة وتؤصلها ، فالتخصص الموضوعى هو أساس الدراسة في الجامعات ، بل ان التخصص الزائد هو سمة العصر الذى نعيش فيه نتيجة لتضخم المعرفة واستحالة أن يستطيع فرد أن يلم بجميع أطرافها ، أو حتى بجميع أطراف مجال واحد من مجالاتها •

وإذن فتصنيف الكتب في المكتبات هو تحديد لموضوعاتها ، وترتيب تلك الموضوعات في بناء منطقى يعكس الصلات التى تربط بعضها ببعض، واستخدام هذا الترتيب في صف الكتب على الرفوف والبطاقات في الفهارس (١) •

---

(١) كما يحدث فى الفهـــرس المصنف وفى قائمة الرفوف •

ترتيب موضوعى ·· ولكن ؟

ومع أن الترتيب الموضوعى هو أفضل طرق الترتيب في المكتبات ، بل هو الترتيب الوحيد المتبع وان اختلفت التفاصيل ، الا أننا ينبغى ألا نظن به الكمال والاحكام ، وألا نتصور أنه جامع مانع لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه · ذلك أننا في تطبيقنا لهذا الترتيب قد نضطر الى عزل بعض المواد التى تعالج موضوعا من الموضوعات عن بقية ما كتب فيه لسبب أو لاخر · فالدوريات واطالس والمجسمات والشرائح والاشرطة المسجلة والافلام ــ عادة ــ تفصل عن الكتب لانها تحتاج الى طريقة في الحفظ تختلف عن طريقة حفظ الكتب ، وكتب الاطفال كثيرا ماتفصل عن كتب الكبار ، والمراجع التى يكثر الطلب عليها ولا يسمح باعارتها خارج المكتبة تفصلها معظم المكتبات عن بقية مقتنياتها ،كما تفصل مجموعات المخطوطات والنوادر وأوائل المطبوعات على اساس انها تحتاج الى عناية أكثر وأن قراءها يختلفون عن جمهور القراء · ومعنى ذلك أن المجموعات الموجودة تحت كل مجال من مجالات المعرفة ستفتقد ما يندرج تحت هذا المجال من مراجع ودوريات ومخطوطات وكتب أطفال ومواد سمعية وبصرية ·

وللادب وضع خاص فى التصنيف ، فالمؤلفات فيه لا ترتب وفقا للموضوعات الادبية كالمدح والهجاء والغزل والرثا ــ ونما ترتب على اساس القالب الادبى الذى صبت فيه كالشعر والقصص والمسرحيات والخطب والمقالات · وتحت كل شكل من هذه الاشكال الادبية يكون الترتيب بالعصور ، ثم يرتب انتاج كل عصر بالمؤلفين · والسبب في ذلك أن دراسة الادب تسير على هذا المنوال وأن دارس الادب يهتم بالشكل الادبى أكثر من اهتمامه بالموضوع ·

ومع أن هذا الترتيب هو الافضل بالنسبة للمؤلفات الادبية الا انه يخلو من العيوب ، فالباحث الذى يبحث عن الادب العربى في عصر بنى العباس ــ مثلا ــ سيجد هذا الادب موزعا حسب القوالب الادبية ، ومن ثم لا بد له من أن يجمع مادة بحثه من أماكن متفرقة · وتلك مشكلة المصنف دائما · فحينما تتعدد ابعاد دراسة الموضوع ينبغى عليه أن يفاضل بينها وأن يختار الترتيب الذى يحقق للمتعاملين مع المكتبة أكبر قدر ممكن من الفائدة ·

ولا يقف الامر عند هذا الحد فحسب ، وانما قد يتعقد أكثر من ذلك حين تجتمع صفتان من الصفات فى كتاب . فموسوعات الاطفال – مثلا يميزها الشكل الموسوعى من ناحية ومستوى المعالجة من ناحية اخرى ، ومن ثم يمكن أن توضع مع المراجع ويمكن أن توضع مع كتب الاطفال . والسؤال الذى يبرز الان هو : اى الاعتبارين يرجح الاخر؟ والاجابة عليه يحددها نوع المكتبة وطبيعة جمهورها وأى البديلين اكثر فائدة لهذا الجمهور . وعموما فحيثما تخصص قاعة لكتب الاطفال فالافضل دائما أن تكون موسوعات الصغار فى هذه القاعة لا فى قاعة المراجع .

نخرج من هذا كله بأن الترتيب الموضوعى للمواد المكتبية وان كان أفضل أنواع الترتيب الا أنه يتعذر تطبيقه تطبيقا كاملا . وتلك أول السلبيات التى ينبغى أن نتنبه لها فى تصنيفنا لتلك المواد . فالاقسام الموضوعية ليست كاملة مائة فى المائة كما قد يتوهم البعض . ونبادر فنقول ان مائة في المائةهذه لاوجود لها في اى قضية من قضايا التصنيف . فالتاريخ – مثلا – يقسم الى مناطق جغرافية ، وكل منطقة من المناطق او بلد من البلدان يقسم تاريخه الى عصور . ومع أن هذا التقسيم هو الامثل بالنسبة لدراس التاريخ الا أنه لا يلبى حاجة من يبحث في تاريخ القرن التاسع عشر – مثلا – دون تحديد للمكان .

وليس هذا هو الصدع الوحيد فى جدار الترتيب الموضوعى ، وانما هناك مسألتان أخريان لا بد الا تغيبا عن بال المصنف وهما :

(١) أن الترتيب الموضوعى يوهم باستقلال فروع المعرفة عن بعضها. وليس الامر كذلك فى واقع الحال . فالطبيعة علم ، والكيمياء علم ، ولكن بينهما من صلات القربى ما يبرر دراستهما معا كمادة واحدة فى المدارس تحت اسم « العلوم العامة » . والاثار فرع من التاريخ ، والعمارة فيها جانب من الفن وجانب من الهندسة ، ولكن من منا يستطيع أن يزعم أن كتب الاثار لا تتحدث عن فن العمارة وهندستها ؟ . وينبنى على ذلك أننا لو جمعنا كل ما يتناول العمارة من كتب الاثار ووضعناها مع العمارة لاكتملت مجموعة العمارة ولكن على حساب مجموعة الاثار . والعكس صحيح أيضا .

(٢) أن واقع التاليف لا يتطابق دائما مع التقسيمات النظرية للمعرفة ،

فالكتاب الواحد قد يعالج أكثر من موضوع ، ومع ذلك فلا بد من وضعه فى مكان واحد على رفوف المكتبة ومن ثم لا بد أن يأخذ رقما واحدا للتصنيف ٠ فأين نضع كتابا عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الامريكية ؟ هل نضعه مع الكتب التى تتكلم عن المملكة أم مع الكتب التى تتناول الولايات المتحدة أم مع كتب العلاقات الدولية؟ وكتب عن اختيار الكتب للمكتبات الجامعية هل الافضل أن يوضع تحت المكتبات الجامعية أم تحت اختيار الكتب ؟ وكتاب شامل عن قناة السويس هل يوضع مع مصر أم مع الملاحة أم مع الجغرافيا أم مع الاقتصاد أم مع القانون الدولى ؟ ٠

والاجابة على هذه الاسئلة يحكمها مبدأ واحد ينبغى أن يضعه المصنف فى ذهنه دائما . بل ينبغى أن يحكم كل العمليات الفنية التى تجرى فى المكتبة من تزويد وفهرسة وتصنيف ٠ هذا المبدأ هو أن نتوخى أكثر السبل نفعا للقارىء وأن نضحى بفائدة قليلة من أجل تحقيق فائدة أكبر ٠

ولكن لماذا نصنف ؟

والتصنيف أو تنظيم الكتب فى مجموعات متميزة ضرورة تلجأ اليها المكتبات كوسيلة لتيسير استخدام تلك المجموعات والاستفادة منها ، ولتوفير وقت الباحثين وجهدهم ٠ وفضلا عن ذلك فهو يساعد على تحقيق التوازن بين مقتنيات المكتبة فى مختلف مجالات المعرفة ، ويكشف عن مواضع النقص والضعف في تلك المقتنيات كى تعمل المكتبة على تلافيها ٠

وثمة فائدة أخرى نجنيها من وراء التصنيف وهى أنه يقدم للباحثين خريطة للمعرفة يتبينون من خلالها الجوانب المتعددت لكل موضوع، والصلات القائمة بين مختلف الموضوعات ٠ فالباحث الذى يقف أمام مقتنيات المكتبة في مجال السياسة – مثلا – يستطيع أن يتبين مجالات البحث السياسى بكل ما يدخل تحته من أشكال الدولة والاحزاب السياسية والحقوق السياسية٠ للافراد وعلاقة الدولة بمواطنيها وعلاقتها بغيرها من الدول ، وغير ذلك من تفريعات السياسة ٠ والباحث الذى يقف أمام مجموعة الفيزياء لايلبث أن يتبين مباحث هذا العلم من صوت وضوء وحرارة وكهربية ومغناطيسية ، ومن دراسة لخصائص الاجسام الصلبة والموائع والغازات ولا يلبث أن يجد على مقربة من علم الطبيعة هذا علوما أخرى وثيقة الاتصال به كعلم الكيمياء ، وعلم الفلك وعلم الحياة ٠ وفي ذلك لفت

لانتباهه الى أبعاد الموضوع من ناحية ، والى الموضوعات ذات الصلة القريبة به من ناحية أخرى ·

التصنيف عبر التاريخ :

وفكرة تصنيف المعرفة تضرب في التاريخ بجذور بعيدة ففى العالم القديم قسم أفلاطون المعارف الى محسوسات ومعقولات ، والمحسوسات عنده هى العلوم الطبيعية ، أما المعقولات فتشمل العلوم الرياضية والالهيات · ومن بعده جاء أرسطو فجعل العلوم ثلاثة أنواع : نظرية وعملية وابداعية (وهى الشعر) ·

وفي العصر الاسلامى كان لعلماء المسلمين نظرياتهم في تصنيف المعرفة· وعلى رأس هؤلاء يأتى الكندى والفارابى والخوارزمى وابن سينا واخوان الصفا وابن خلدون ، فالكندى قسم العلوم الى دينية وفلسفية ، وابن سينا قسمها الى نظرية وعلمية ، واخوان الصفا قسموها الى رياضية وطبيعية ونفسية والهية وابن خلدون قسمها الى نقلية وعقلية ، فالعلوم النقلية هى علوم العربية والاسلام التى تتناقلها أجيال الامة جيلا بعد جيل ، والعلوم العقلية هى ما عدا ذلك من المعارف التى لا تختص بها أمة من الامم ·

وبعد مضى بضعة قرون على هذه الافكار الاسلامية ظهر فرانسيس بيكون على الناس فى انجلترا والعالم كله بتصور للمعرفة البشرية رد فيه جميع المعارف الى ثلاث قوى هى الذاكرة والخيال والعقل ، واعتبر التاريخ حصيلة الذاكرة ، والشعر نتاج الخيال ، والفلسفة نتاج العقل ·

هذا عن تصنيف المعرفة ، أو التصانيف الفلسفية للمعرفة · أما تصنيفها كما تتمثل فى الانتاج الفكرى أو المؤلفات فقد بدأ هو الاخر مع ظهور المكتبات · فديورانت يذكر في «قصة الحضارة» أنه فى الالف الثالث قبل الميلاد كانت الالواح الطينية محفوظة فى جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملا عددا كبيرا من المكتبات فى هياكل الدولة البابلية وقصورها(١) ويذكر كلارك Clark فى كتابه (العناية بالكتب The Care of Books) أن مكتبة آشور بانيبال (فى القرن السابع قبل الميلاد) كانت ألواحها مرتبة فى مجموعات مصنفة تحت ستة رؤس موضوعات هى : التاريخ والقانون والعلوم والسحر والعقائد والاساطير (١) · ومن

المعلوم أيضا أن كاليماخوس أمين مكتبة الاسكندرية فى القرن الثالث قبل الميلاد نظم فهرس المكتبة فى ١٢٠ صنفا ورتب بعض اجزائها ترتيبا زمنيا بالعصور .

وفى العصور الوسطى كانت مكتبات الاديرة فى أوروبا ترتب كتبها فى خزائن حسب الموضوعات وكانت كتب كل موضوع ترتب تبعا لاحجامها وأبسط صور التصنيف التى كانت تتبعها تلك المكتبات أن تفصل كتب المؤمنين عن كتب الملحدين وتضع هذه فى جانب وتلك فى الجانب المقابل.

ولم تكن المكتبات الاسلامية فى العصور الوسطى تجهل التصنيف أو تهمله ، فلا تكاد توجد مكتبة كبيرة ، عامة أو خاصة ، بدون تصنيف . ويكفى أن نذكر من مكتبات الخلفاء والوزراء خزانة العزيز ومكتبة الحاكم بأمر الله فى القاهرة ، ومكتبة الحكم المستنصر الاموى فى قرطبة ، وخزانة عضد الدولة البويهى فى شيراز . فأبو شامة يذكر فى كتابه «الروضتين»

أن صلاح الدين الايوبى وجد مكتبة الفواطم مفهرسة ومصنفة (٢) . ويحدثنا المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم » أنه لم يبق كتاب صنف فى وقت عضد الدولة البويهى الا وحصله فى مكتبته ، وأن كل موضوع فى هذه المكتبة كان له « بيوت وفهرستات » (٣) . ويذكر القفطى في « اخبار الحكماء » أن ابن سيناء دخل بخارى فوجدها مصنفة (٤) .

وكذلك كانت الكتب فى المدرستين النظامية والمستنصرية فى بغداد مصنفة « ليسهل تناولها ، ولا يتعب مناولها » .

ولكن هذه التصانيف كلها كانت تصانيف موضعية ان صح هذا التعبير ، فكل منها قد عمل ليتناسب مقتنيات معينة ولم يكن في الحسبان يوما أن يستعمل أى منها فى مكتبة أخرى غير المكتبة التى عمل من اجلها . وظل الحال كذلك حتى جاء العصر الحديث وتنوعت المكتبات وتعددت وتضخمت مجموعاتها نتيجة لظهور الطباعة وانتشار التعليم ، فتولد التفكير في عمل نظم تصنيف تصلح لعدد كبير من المكتبات ، وتمخض ذلك عن ظهور خطط التصنيف الحديثة .

---

(١) قصة الحضارة ، ج ٢ . ص ٢٣٦ .

خطط التصنيف الحديثة :

ولقد سارت نظم التصنيف الحديثة فى اتجاهين كانت ثمرة أولهما ما يعرف الان بخطط التصنيف العامة ، وكانت ثمرة الثانى ما يعرف بالخطط الخاصة .

أما الفئة الاول من الخطط وهى **الخطط العامة** فتحصى كل فروع المعرفة البشرية وتقدمها فى ترتيب مقنن يستعرض كل موضوع بكافة تفريعاته وجزئياته ويراعى الصلات بين هذه التفريعات من ناحية والصلات بين الموضوع الرئيسى وغيره من ناحية أخرى بحيث تتجاوز الموضوعات المتقاربة .

وتنقسم هذه الفئة من التصانيف بدورها الى نوعين أحدهما جاهز والاخر تفصيل . تماما كالثياب . فالنوع الاول يعطيك قطعا من الملابس جاهزة ذات مقاييس مختلفة وما عليك الا أن تبحث عما يناسبك منها . أما الاخر فلا يعطيك شيئا جاهزا وانما يعطيك القماش ويترك لك أن تفصله على مقاسك وذوقك . ولا يخفى أن هذا النوع الاخير غالبا مايكون أضبط ولكنه أغلى تكلفة وأبطأ فى الانتاج .

وتسمى الخطط **الجاهزة** بالخطط الحصرية ، ويمثلها معظم خطط التصنيف العالمية وأشهرها وهى :

التصنيف العشرى لملفيل ديوى

والتصنيف الموسع لكتر .

وتصنيف مكتبة الكونجرس الامريكى .

والتصنيف الموضوعى لجيمس براون .

والتصنيف الببليوجرافى لهزى افلين بليس .

أما الخطط (التفصيل) فيطلق عليها (الخطط التحليلية التركيبية) ويمثلها تصنيف الشارحة Colon الذى وضعه العالم الهندى رانجاناثان وثمة خطة عامة تقف فى منتصف الطريق بين الخطط الحصرية والخطط التحليلية التركيبية لان جزءا منها جاهز والاخر تفصيل ، هذه الخطة هى التصنيف العشرى العالمى UDC . الذى يستخدم الاساس الحصرى

العشرى الذى وضعه ديوى وفى الوقت نفسه يستخدم التحليل والتركيب لتخصيص الموضوع ·

وأما خطط التصنيف المتخصصة فهى التى تغطى فرعا واحدا من فروع المعرفة الاسلام أو التربية أو الادارة الهندسية أو الالكترونيات، أو عدة فروع تتصل ببعضها كالعلوم الاجتماعية أو الفنون وهى كثيرة · ولا يخفى أن هذا النوع من التصانيف أنسب للمكتبات المتخصصة وأصلح من أى تصنيف عام ·

د. عبد الستار الحلوجى

---

(١) The Care of Books , 3-4

(٢) كتب الروضتين في أخبار الدولتين ، ط ص ٢٦٨

(٣) احسن التقاسيم ، ص ٤٤٩

(٤) اخبار الحكماء ، ص ٤١٦ ·